ذلك أنه ليس من عادة الشعراء أن يقدِّموا قَبْل الرثاء نسيبا ، في حين انهم يصنعون ذلك في المدح والهجاء . قال ابن الكلبي : لا أعلم مَرْثيَّة أولها نسيب إلا قصيدة دُرَيد بن الصِّمَّة :

أرثَّ جديدُ الحَبْلِ مِنْ أمِّ مَعْبَدِ بِعافِيَةٍ وَأخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

ويعلل ابن رشيق لذلك بأن دريدًا إنما تغزَّل بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره ، وأدرك طلبته [١].

ولأن الشعراء كانوا يتحرَّكون في إطار خُطَّة فنية مُحْكَمة – كان أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة لضيق الكلام فيهما ، وقلة الصِّفات . ومن هنا تعثر أبو الطيب – وهو فَحْل – في رثاء أم سيف الدولة بقوله :

صَلاةُ اللهِ خالِقِنا حَنوطٌ عَلى الوَجْهِ المُكَفَّنِ بِالجَمالِ

فقالوا : ما له ولهذه العجوز يصف جمالها [٢].

ولكن انطلاق الشاعر من حدود الخُطَّة المحكَمَة للرثاء ، يتيح له أن يقدم فيه إبداعات دلالية توثر في القلب وتثير الحزن ، ومن ذلك قول محمد بن عبد الملك في رثاء أم ولده :

ألا مَنْ رَأى الطِّفْلَ المُفارِقَ أمَّه بعيدَ الكَرى عَيْناهُ تَبْتَدِرانِ
رَأى كُلَّ أمٍّ وَابْنَها غَيْرَ أمِّـــهِ يَبيتانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَحِبانِ
وَباتَ وَحيدًا في الفِراشِ تَحثه بَلابِلُ قَلْبٍ دائِمِ الخَفَقــانِ

(١) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ . (٢) المرجع السابق ، ص ١٢٤ .